عمارة الكعبة المشرفة قبل الإسلام

د. محمد بن سلطان العتيبي

قسم الآثار ـ كلية السياحة والآثار ـ جامعة الملك سعود

ذكرت الكعبة في القرآن الكريم مرتان:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)[1].

(جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلآئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[2].

وذكرت باسم البيت:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[3].

والبيت العتيق:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)[4].

أول بيت:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ)[5].

---

[1]) سورة المائدة ، الآية ٩٥.
[2]) سورة المائدة ، الآية ٩٧.
[3]) سورة البقرة ، الآية ١٢٥.
[4]) سورة الحج ، الآية ٢٩.
[5]) سورة آل عمران ، الآية ٩٦.

والمسجد الحرام، والبيت الحرام:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[1].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[2].

والبيت المحرم:

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[3].

وعرف عرب الجاهلية أكثر من كعبة يضاهون بها الكعبة منها كعبة غطفان (بَسَّ) وهي بيت مربع الشكل (شبه مكعبة)[4].

والكعبة اليمانية وهي معبد لذو الخلصة وعلى الأرجح أنها ببلاد **دوس** ومن شهرتها وأهميتها أن من يقدسها يسمي الكعبة المشرفة بالكعبة الشامية[5].

ومن الكعبات المشهورة كعبة نجران واختلف فيها هل هي كعبة عبادة أو غرفة لسادة القوم[6].

---

[1]) سورة البقرة ، الآية ١٥٠.

[2]) سورة المائدة ، الآية ٢.

[3]) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

[4]) العتيبي، محمد ، المعبد قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية ـ العراق ـ بلاد الشام ، مصر (دار الوراق، بيروت، ٢٠١٤م)، ص ص ١٣٤ـ ١٤٤.

[5]) العتيبي، محمد ، المعبد قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية ـ العراق ـ بلاد الشام ، مصر (دار الوراق، بيروت، ٢٠١٤م)، ص ١٤٥.

[6]) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، كتاب الأصنام (تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الثالثة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م)، ص ص ٤٤ـ ٤٥.

ويبدو أن العرب لقداسة الكعبة المشرفة في ازمانهم القديمة قبل الإسلام قد تأثروا بشكلها ومبناها فقلدوا ذلك في أقدس معابدهم والشواهد على هذا كثيرة.

بناء الملائكة للكعبة:

روى الإخباريون والمفسرون عدة روايات عن بناء الكعبة ومن تلك الروايات ما رواه الأزرقي أن الله سبحانه وتعالى عندما استخلف آدم وقال للملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة)[١]. وضع تحت العرش بيتًا على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء، وهو البيت المعمور المذكور في القرآن الكريم، ثم قال الله للملائكة: (أبنوا لي بيتًا في الأرض بمثاله وقدره) [٢].

وروى الإخباريون العرب والمفسرون عن أساس الكعبة أن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فكشف عن أساس ثابت وقذفت فوقه الملائكة من الصخور حتى استوى على الأرض، وأن آدم عليه السلام طاف بالبيت وحج إليه، وهناك من يشير إلى أن بني آدم عليه السلام تعاهدوا الكعبة بإصلاحات وتعمير وإضافات قبل الطوفان في زمن نوح عليه السلام [٣]. وذكر بناء الملائكة الكعبة كل من : الأزرقي في تاريخه، والطبري، والقرطبي، وابن كثير في التفاسير، وياقوت الحموي وغيرهم[٤].

وروى البيهقي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعث الله جبريل عليه السلام إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لي بناء فخط لهما جبريل عليه السلام فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء نودي من تحته : حسبك يا آدم، فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس،

---

[١]) سورة البقرة، الآية ٣٠.
[٢]) الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبدالله، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط٤ (دار الثقافة، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ج١، ص ص ٣٢- ٣٤.
[٣]) مطر، فوزية حسين، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، ط١ (تهامة، سلسلة رسائل جامعية، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص٣٠.
[٤]) الطريقي، عبدالله محمد أحمد، تاريخ الكعبة المشرفة (الرياض، ١٤٢٨هـ)، ص ص ٣- ٣١.

وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه) (رواه البيهقي في دلائل النبوة، وقال: تفرد به ابن لهيعة مرفوعًا)[١].

وروى الأزرقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان، وروى الأزرقي أيضًا: (أن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال: ابنوا لي مثل هذا البيت المعمور وقدره وأمر من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وكان ذلك قبل خلق آدم)، وتتواصل روايته إلى أن يقول: (أن الملائكة لقيت آدم عليه السلام في موضع بين عرفة ومزدلفة يقال له المأزمين، أو قابلته في الطواف فقالوا له: بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام)[٢].

وقال ابن جرير الطبري في التفسير: ("وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" : اختلف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام من البيت. أهما أحدثا ذلك، أم هي قواعد كانت له قبلهما؟ فقال قوم هي قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه وتعفى أثره حتى بوأه الله لإبراهيم عليه السلام فبناه، ومن القائلين بهذا عطاء وابن عباس)[٣].

وبذلك فقد اختلف الإخباريون والمفسرون في البناء الأول للكعبة هل هو بناء واحد بنته الملائكة واستمر حتى الطوفان، أم هو بناءان الأول بنته الملائكة والثاني بناه آدم؟ ويرى بعض الباحثين أنه من الظاهر من الأقوال التي ذكرها أهل العلم أن بناء الملائكة قبل بناء آدم عليه السلام [٤].

---

[١]) البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، تحقيق محمود وأحمد شاكر (القاهرة، ب . ت)، ص ٤٤؛ الطريقي، تاريخ الكعبة المشرفة ، ص ٣٢.

[٢]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ص ٤٠- ٤٥.

[٣]) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق عبد المعطي قلعجي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ب . ت)، ج٣، ص ٥٧.

[٤]) الطريقي، تاريخ الكعبة المشرفة ، ص ٣٥.

وتجدر الإشارة إلى رواية الأزرقي عن وهب بن منبه :

أنه لما تاب الله على آدم عليه السلام أمره بأن يسير إلى مكة فطوى له الأرض وعزاه بخيمة من خيام الجنة انزلها عليه بمكة في مكان الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وكانت هذه الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة، فيها ثلاثة قناديل من ذهب ومن تبر الجنة فيها نور من نور الجنة ونزل معها الركن "الحجر الأسود" وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة، وقد كلف الله الملائكة بحراسة هذه الخيمة والحرم والحل خلف الملائكة والحرم كله أمامهم فلا يجاوزهم جان ولا شيطان ولهذا حُرم الحرم حتى اليوم، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى مات فرفعها الله تعالى [١].

وهناك رواية أخرى للأزرقي عن وهب بن منبه أيضًا أنه لم أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض شعر بالوحشة فسأل ربه : (يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيري؟ قال: إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لي، وسأجعل فيها بيوتًا ترفع لذكري ويسبحني فيها خلقي، وسوف أبوئك فيها بيتًا أختاره لنفسي واختصه بكرامتي، و أوثره على بيوت الأرض، فأسميه بيتي وأنطقه بعظمتي وأحوزه بحرماتي، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترتها لنفسي، فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض)[٢].

وهناك من العلماء والمؤرخين من يخالف هذه الروايات، ويؤكدون أن نبي الله إبراهيم عليه السلام هو أول من أسس الكعبة وأنها لم تكن موجودة قبله، وأن ظاهر القرآن الكريم يقتضي ذلك لأنه يشير إلى أنه عليه السلام أول من بنى الكعبة[٣].

وهكذا تفاوتت روايات الإخباريين والمفسرين عن عمارة الكعبة منذ أن استخلف الله آدم على الأرض وحتى الطوفان وتراوحت ما بين أن الكعبة شيدت بواسطة الملائكة

---

[١]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٥١؛ الموجان، محمد حسين، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة، مركز الكون للثقافة والإبداع، ١٤٢٦هـ)، ص ٤٨.

[٢]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٥١- ٥٣؛ المرجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٤٩.

[٣]) الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٤٩.

أو بواسطة آدم وبنيه من بعده، وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فإن الثابت أن أول عمارة للكعبة بعد الطوفان هي تلك التي تمت على يدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)[1].

عمارة الكعبة في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

أمر الله عز وجل نبيه إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، والثابت انه عليه السلام أحضر زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى مكة عند الموضع الذي سيقام فيه بيت الله ، وتركهما ورجع لكنه استقبل مكان البيت وتوجه إلى ربه بالدعاء: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[2].

ولما نفد الماء الذي مع هاجر وعطش ابنها وهرولت بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء جاء جبريل عليه السلام وضرب الأرض بجناحه فتفجرت ماء زمزم فشربت وأرضعت ابنها، وكان ذلك بداية الاستقرار في مكة المكرمة.

لذا فإن بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة من الأمور اليقينية المسلم بها والتي يجب الإيمان بها لورودها في القرآن الكريم (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[3].

تم البناء بحجارة غير مشذبه (الرضم) وبدون مونة ويقول عبد القدوس الأنصاري أن البناء كان يتم كما يلي: (يضع الحجارة فوق الحجارة بدون ملاط من طين أو مدر أو قصة (نورة) فلما بلغ بنيانه لها حدًا احتاج معه إلى شيء يقوم عليه بسبب ارتفاع البناء تدريجيًا أتخذ من حجر المقام الذي لا يزال موجودًا أمام الكعبة موقفًا له، وكان إبراهيم

---

[1]) سورة البقرة، الآية ١٣٧.
[2]) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
[3]) سورة الحج، الآية ٢٦.

يحول حجر المقام هذا من جهة إلى جهة حسب اقتضاء عملية البناء لجدر الكعبة ولم يجعل إبراهيم في بنائه للكعبة بابًا لها، ولا قفلاً، ولا سقفًا)[1].

ولكن الذي يثير التساؤل لدى الباحث حول ما ذهب إليه الأنصاري بأن إبراهيم لم يجعل لها باباً ولعل ذلك فيه نظر إذ ورد في الأحاديث الشريفة في الصحيحين وغيرها ما مفاده : رغبة محمد عليه الصلاة والسلام على اعادتها على بناء إبراهيم وذكر بأن يجعل لها بابين ويضم جزء كبير من حجر إسماعيل وهذا دليل على أن بناء إبراهيم عليه السلام لها كان يحوي الحجر وأن لها بابين في عهده ولهذا ربما وهم الأنصاري - رحمه الله - في أنها لم يكن لها باباً في أيام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

وقد كان البناء متناهي البساطة لا أبواب له ولا سقف فقط جدران شيدت من أحجار غير مشذبه ولكنها كانت بأركان وأساسات قوية لتدعم البناء، وروى الأزرقي عن بناء الكعبة على يدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عدة روايات عن كل من : علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، ومجاهد، ووهب بن منبه، وقتادة، وبشر بن عاصم، ومحمد بن إسحاق وغيرهم [2].

وعن مقاسات بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة روى الأزرقي عن محمد بن اسحاق أنها كانت على النحو التالي:

(فبنى البيت وجعل طوله في السماء تسعة أذرع (٦,٧٥متر)، وطول الجدار الشرقي الذي فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعًا (٢٤ متر)، وطول الجدار الغربي المقابل له واحد وثلاثين ذراعًا، وعرض الجدار الشامي من جهة الحجر اثنين وعشرين ذراعًا (١٦,٥ متر)، وعرض الجدار اليماني ما بين الركنين عشرين ذراعًا (١٥ متر) فلذلك سميت

---

[1]) الأنصاري، عبد القدوس، "الكعبة: أسماء، وعمارات، ومعبدًا لا معبودًا، وتاريخًا قبل الإسلام" (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جمادى الأولى ١٣٩٧هـ/ أبريل ١٩٧٩م، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ١٢٤.

[2]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٥٨- ٦٦.

الكعبة؛ لأنها على خلقة الكعب، قال : وكذلك أساس آدم عليه السلام، وجعل بابها غير مبوب)[1].

ولم يجعل بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة أركانًا من جهة حجر إسماعيل بل جعلها مدورة، ويقال أن الحجر الأسود كان الله سبحانه وتعالى قد أستودعه في جبل أبي قبيس بعد الطوفان، وأوحى الله إلى جبريل عليه السلام: (إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له) فجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود ووضعه في مكانه[2].

وقيل : بل بعد أن أتم إبراهيم البناء أمر ابنه إسماعيل بإحضار حجر : (فانطلق الغلام يلتمس له حجرًا، فأتاه فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه. فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ قال : أتاني به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل من السماء، فأتماه)[3].

ولكن لماذا بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة بهذه البساطة، ولم يشأ أن يشيدها في ضخامة من البناء وهو الذي عاش في العراق وزار مصر والشام وشاهد الأوابد الضخمة من العمائر والمعابد؟

يعزو بعض الباحثين السبب في ذلك إلى ما جبل عليه الأنبياء عليهم السلام من نزوع إلى البساطة في بناء دور العبادة لأنها مخصصة لعبادة الله عز وجل، والغرض من تشييدها هو ابتغاء مرضات الله عز وجل، وهو النهج الذي سار عليه محمد صلى الله عليه وسلم في بناء مسجده بالمدينة المنورة[4].

عمارة الكعبة على أيدي العماليق وجرهم :

من الجدير بالذكر أن كل ما لدينا من تاريخ عن العماليق وجرهم أُستقي من روايات الإخباريين العرب وتتضارب هذه الروايات حول العماليق وجرهم ومن منهما الاقدم

---

[1] الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٦٤؛ الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٥٥.
[2]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٦٢- ٦٥.
[3]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٦٥.
[4]) الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٥٥.

زمناً، وبالتالي فإن الاعتماد على تلك المعلومات في تاريخ عمارة الكعبة خلال العهد الذي كان فيه العماليق وجرهم يسيطرون على مكة تحتاج إلى مزيد من الحذر في ظل عدم وجود أي مصادر أخرى، وقد عبر عبدالقدوس الأنصاري عن ذلك بقوله: (إن المعلومات التي تلقيناها عن هاتين العمارتين، كانت ضئيلة وغامضة. تبعاً لغموض تاريخ القبيلتين في حكمهما لمكة، وربما كان ذلك بسبب عدم وجود مدونين لتاريخهما السحيق وكل ما وصل إلينا من المعلومات عن عمارة الكعبة في عهد جرهم أنهم زادوا في فناء البيت وارتفاعه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام)[١].

وبذلك يتضح لنا أن عمارة الكعبة في عهد العماليق وجرهم يشوبها اضطراب في الرواية حتى لا نستطيع أن نتبين منها أيهما قام بعمارة الكعبة أولاً العماليق أوجرهم، وليس أمامنا إلا ما رواه الأزرقي بسنده عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خبر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة ثم هدم فبنته العمالقة لها وبنائهم له، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم فبنته قريش)[٢]، أما أطوال الكعبة في عمارة العماليق وجرهم فهي مثل عمارة إبراهيم عليه السلام حيث لم يشر أحد من المؤرخين إلى أي تغيير حدث بين العمارتين[٣].

والأرجح لدى الباحث أن العماليق أقدم عهداً من جرهم ولعل ما يقوي هذا الرأي ويرجحه ربط جرهم بقريش وخصوصاً في مثل بيت زهير بن ابي سلمى بل أن هذا البيت ربما يوحي بقرب عهد جرهم من العصر الجاهلي إذ لا يزال اسمها في الأذهان وفي الذاكرة في هذا الزمن المتأخر.

هذا وقد ورد ذكر بناء جرهم للكعبة في الشعر العربي قبل الإسلام فقال زهير بن أبي سلمى[٤] :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

---

[١]) الأنصاري، "الكعبة: أسماء، وعمارات، ومعبدًا لا معبودًا، وتاريخًا قبل الإسلام"، ص ١٢٥.
[٢]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٦٢.
[٣]) الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٦٠.
[٤]) أبي سلمى، زهير، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق علي حسن فاعور، ط١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ١٠٥.

وقول الأعشى[1] :

فإني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم

لكن ذكر بناء جرهم للكعبة في الشعر لم يمدنا بمعلومات عن طريقة البناء ولا أسلوبه، ولا نستطيع أن تتبين من خلال ذلك هل كان البناء مثل بناء إبراهيم بدون مونة أم أنه انتهج طرقًا أخرى؟ [2].

عمارة قصي بن كلاب:

ترتبط هذه العمارة باستقرار قصي بن كلاب وقبيلته في مكة وهو سيد قريش يومئذ، وأول من ملك من بني كنانة، وكانت قبيلة خزاعة تسيطر على مكة وتحكمها قبيل مجيء قصي إليها، وعندما قدم قصي إلى مكة تزوج من جني بنت جليل بن حبشة بن سلول الخزاعي الذي كان أمر الكعبة بيده، ويذكر الرواة عن بناء قصي للكعبة أنه هدم البناء القديم وشيدها من جديد، وذكر الزبير بن بكار القرشي (ت ٢٥٦هـ) : (أن قصي بن كلاب أخذ في بنيان البيت، وجمع نفقته، ثم هدمها فبناها بنيانًا لم يبن أحد ممن بناها مثله فبناها وسقفها بخشب الدوم وبجريد النخل)[3].

وينسب إلى قصي إعادة تخطيط مكة وخاصة ما حول الكعبة، وبناء دار الندوة [4]، وزاد قصي في ارتفاع الكعبة لتصبح ٢٥ ذراعًا. وقصي بن كلاب هو الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي أنه عاش تقريباً في منتصف القرن الخامس الميلادي حوالي (٤٥٠م).

ولم يرد في روايات الإخباريين العرب شيء عن قيام قبيلة خزاعة بأي عمارة للكعبة، ويعلق على ذلك عبدالقدوس الأنصاري بقوله:

---

[1]) الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد محمد حسن، (د ت)، ص ١٦٦.
[2]) الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٦٠.
[3]) الطريقي، تاريخ الكعبة المشرفة ، ص ٥٠.
[4]) مطر، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، ص ٤٩.

(ويبدو أن خزاعة لم تقم بعمارة البيت الحرام طيلة عهد حكمها لمكة الذي ذكروا أنه يناهز ثلاثمائة عام. ونستبعد أن لا يكون حدث بالكعبة أي خلل طوال تلك المدة في العهد الخزاعي)[1].

ويرى الموجان أن الروايات التي ذكرت أن قصي قد زاد عرض الكعبة إلى خمسة وعشرين ذراعًا بما يلي: (المعروف أن عرضها من الجهتين الشرقية والغربية لا ينقص على ثلاثين ذراعًا في بناء الخليل عليه السلام، وأن أراد عرضها من الجهتين الشامية واليمانية فعرضها في هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرين ذراعًا وكل من بنى الكعبة بعد إبراهيم لم يبنها إلا على قواعده غير أن قريش اقتصرت من عرضها في الجهتين الشرقية والغربية من جهة الحجر أذرعًا من أساس إبراهيم لأمر اقتضاه الحال)، وكانت الكعبة قبل قصي بلا سقف فجعل لها قصي سقفًا[2].

والمثير للتساؤل هنا لماذا قرر قصي بن كلاب أن يجعل لها سقفاً، هل كان هذا القرار منه محاكاة لكثير من المعابد العربية المعاصرة له والمسقوف الكثير منها في انحاء مختلفة من الجزيرة العربية.

عمارة قريش:

يقال أن حريقًا شب في الكعبة كما أن السيول دهمتها مما أدى إلى تصدع بنيانها فاتفقت قريش على إعادة بنائها. فبدأ هدم الكعبة حتى أساسها ثم بدأ البناء من جديد وقد شارك فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وحدث هذا قبل البعثة بخمس سنوات، وقد تلاحت قريش في أمر إعادة الحجر الأسود إلى مكانه بعد أن نشب خلاف حاد بين بطونها ايهم يضعه في مكانه، ارتضوا أن يجعلوا هذا الشرف لأول من يدخل عليهم في المسجد، فكان أن دخل عليه الصلاة والسلام اليهم فجعلوا الحجر الأسود في قطعة من قماش واخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه. ولما وصل ارتفاع البناء إلى أربعة

---

[1]) الأنصاري، "الكعبة: أسماء، وعمارات، ومعبدًا لا معبودًا، وتاريخًا قبل الإسلام"، ص ١٢٦.
[2]) الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٦٠.

أذرع تم وضع الباب عند هذا الارتفاع وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(حدثنا سعيد بن منصور حدثنا أبو الأحوص حدثنا أشعث بن أبي الشعثاء عن الأسود بن يزيد عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحجر أمن البيت هو قال نعم قلت فلم لم يدخلوه في البيت قال إن قومك قصرت بهم النفقة قلت فما شأن بابه مرتفعا قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الحجر في البيت وأن ألزق بابه بالأرض)[1].

وبعد الوصول إلى مستوى الحجر الأسود استمر البناء الذي كان مدماكًا من حجر ومدماكًا من خشب، وبلغ عدد المداميك التي من الحجر ستة عشر مدماكًا، أما مداميك الخشب فبلغ عددها خمسة عشر مدماكًا وبذلك يكون المجموع واحد وثلاثين مدماكًا، وقد استخدم في ربط المداميك الطين والنورة، أما الجزء الذي نقص من الجهة الشمالية وتبلغ مساحته ستة أذرع وشبرًا فقد شيد حوله جدار قصير على هيئة نصف دائرة ليتم الطواف خلفه لأنه جزء من الكعبة، ولم يعد الباب ملتصقًا بالأرض بل صار مرتفعًا عنها بمقدار أربعة أذرع وشبرًا، و ملئت الكعبة من الداخل بالأتربة والحجارة حتى لا تدخلها السيول، وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، وجعلوا لها سقفًا مسطحًا من الخشب له ست دعائم في صفين كما صف ثلاث دعائم بين الجدارين الشامي واليماني، وكان في الركن الشامي درج في أعلاه فتحة للوصول إلى سطح الكعبة، وجعلوا لها ميزاب يصب في الحجر، وبلغت أطوال الكعبة في عمارة قريش: الارتفاع: ثمانية عشر ذراعًا، وطول الجدار الشرقي: ستة وعشرين ذراعًا، وطول الجدار الغربي: ستة وعشرين ذراعًا، وطول الجدار الشمالي: اثنين وعشرين ذراعًا، وطول الجدار الجنوبي: عشرين ذراعًا[2].

---

[1]) النووي، يحيى بن شرف أبو زكريا، شرح النووي على مسلم (دار الخير ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ج٣، ص ٤٥٣؛ الطريقي، تاريخ الكعبة المشرفة ، ص ٥٧.

[2]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ١٦٤؛ الموجان، الكعبة المشرفة عمارة وكسوة،، ص ٦٣.

وقد قل عرض الكعبة من الناحية الشمالية نحو ستة أذرع (٥,٥م) لأنهم اشترطوا أن لا يدخل في بناء الكعبة إلا نفقة حلال فلما نفذت النفقة توقفوا عند هذا الحد[١].

وقد روت أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم، فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم، فقال : لولا حدثان قومك بالكفر)[٢].

وتظل ضمن عمارة قريش للكعبة رواية تداولها الإخباريون، والمؤرخون، والمفسرون وهي الخاصة بالنجار الرومي أو القبطي باخوم (باقوم) ومعه أعوان من النصارى انهم هم الذين قاموا ببناء الكعبة ليس هذا فقط بل بعمل الباب والسقف وتزيين داخل الكعبة، وهذه الرواية ليس لها سند وكأن العرب و قريش لا تجيد البناء ولا تعرف فنون العمارة، ويتم تصوير الأمر وكأن ما لم يبنى بمكة إلا الكعبة، والحضارة العربية قبل الإسلام. عرفت البناء منذ عصور موغلة في القدم، وعرفت التزيين، والنحت، والتصوير ولم تكن قريش في حاجة إلى نجار رومي أو قبطي قذف به البحر لكي يعلمها فنون العمارة، ومكة حينها كانت محطة تجارية وتعج بأبناء الأقاليم المختلفة من جزيرة العرب من وأرباب المهن والصنائع.

فإذا كانت عمارة قريش للكعبة قد حدثت بعد عام الفيل (٥٧١م) بخمسة وثلاثين سنة فإن عمارتها للبيت العتيق كانت حوالى ٦٠٦م.

---

[١]) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ١٦٥.

[٢]) البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ص ٤٤.

المصادر والمراجع

ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب:

- كتاب الأصنام (تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الثالثة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م).

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله:

- أخبار مكة (تحقيق رشدي الصالح ملحس- الطبعة الرابعة، دارة الثقافة، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

الأنصاري، عبدالقدوس:

- الكعبة: أسماء، وعمارات، ومعبدًا لا معبودًا، وتاريخًا قبل الإسلام ص ص١١٧-١٢٥ (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جمادى الأولى ١٣٩٧هـ/ أبريل ١٩٧٩م، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

البيهقي، أحمد بن الحسين:

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (تحقيق محمود وأحمد شاكر، القاهرة، بدون تاريخ).

الأعشى الكبير، ميمون بن قيس:

- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد محمد حسن (بيروت د.ت).

أبي سلمى زهير:

- ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق علي حسن فاعور (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين:

- شرح المعلقات السبع، (دار بيروت، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:

- جامع البيان عن تأويل القرآن (تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ).

الطريقي، عبدالله محمد أحمد:

- تاريخ الكعبة المشرفة (لرياض ١٤٢٨هـ).

العتيبي، محمد سلطان:

- المعبد قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية ـ العراق ـ بلاد الشام، مصر (دار الوراق، بيروت، ٢٠١٤م).

مطر، فوزية حسين:

- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف (تهامة، سلسلة رسائل جامعية، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

الموجان، محمد حسين:

- الكعبة المشرفة عمارة وكسوة (مركز الكون للثقافة والإبداع).

النووي، يحيي بن شرف أبو زكريا:

- شرح النووي على مسلم (دار الخير ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).

المخططات اللوحات

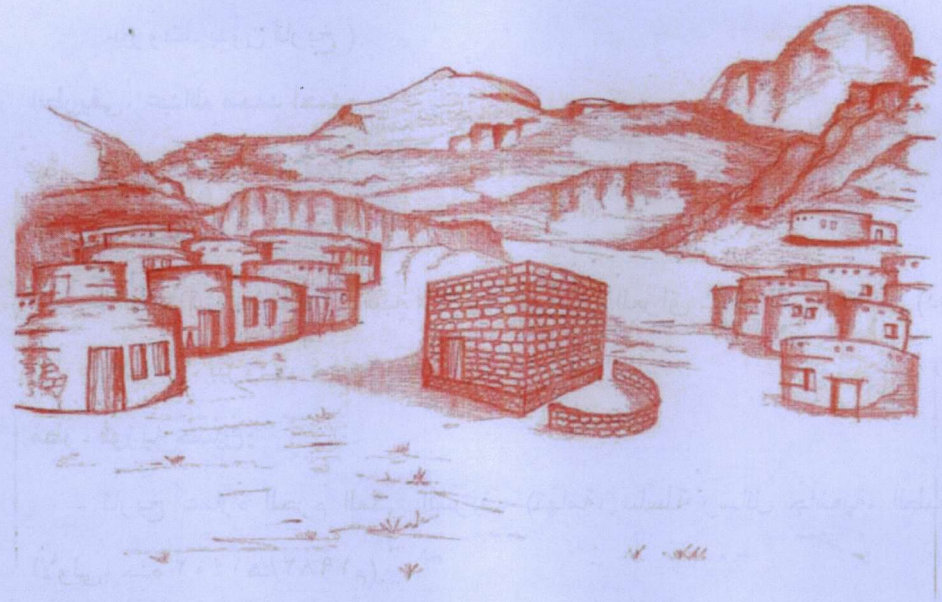

مخطط ١ : مخطط تخيلي للكعبة ومكة في العصر الجاهلي

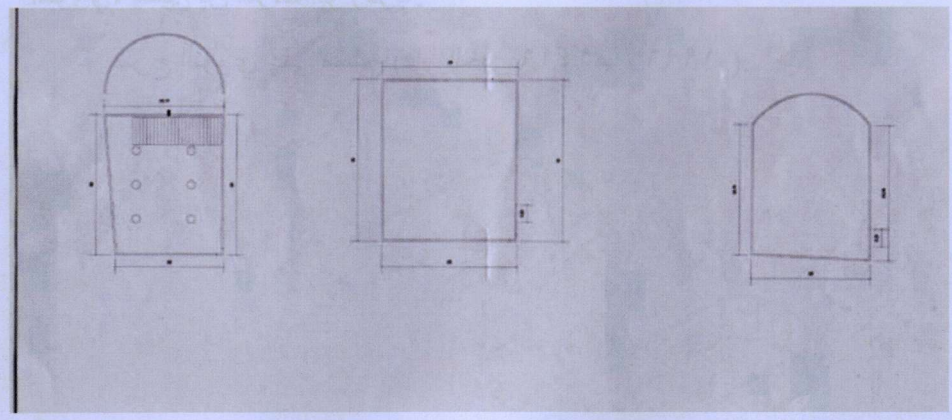

عمارة إبراهيم عليه السلام عمارة قصي بن كلاب عمارة قريش

مخطط ٢: مساقط افقية للكعبة للثلاث مراحل

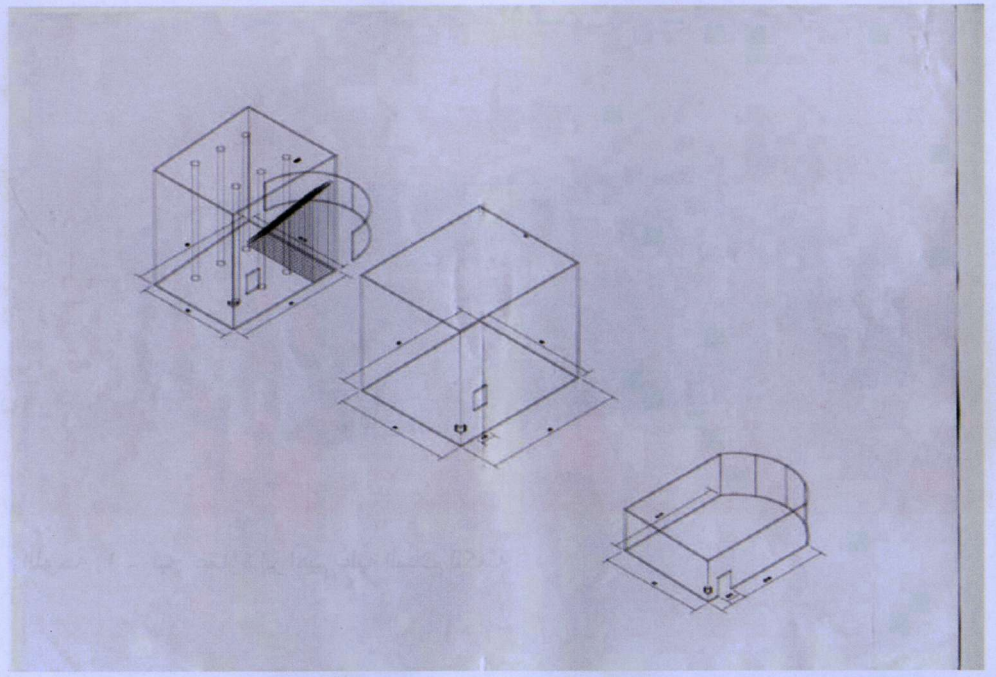

مخطط ٣: منظور تصوري ثلاثي الأبعاد للمراحل الثلاث

اللوحة ١ - أ: عمارة إبراهيم عليه السلام للكعبة

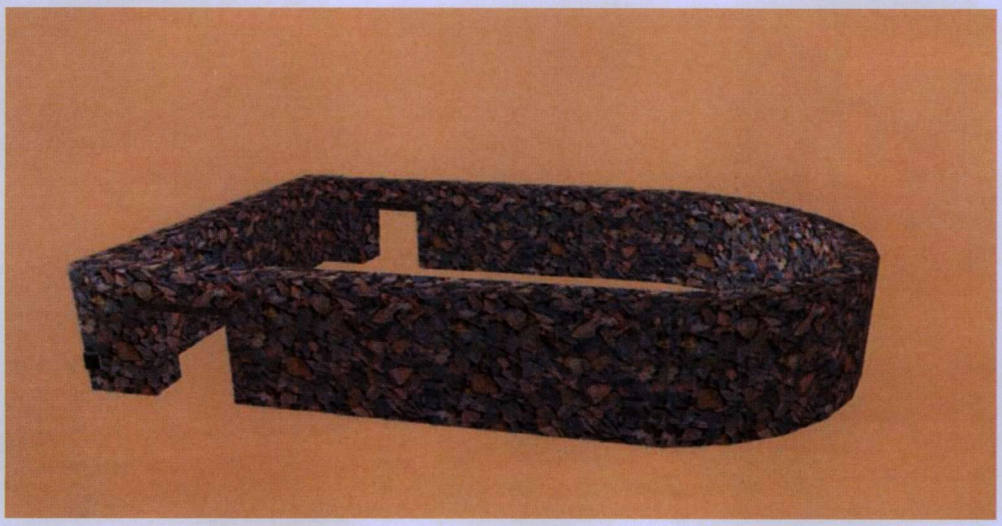

اللوحة ١ - ب: عمارة إبراهيم عليه السلام للكعبة

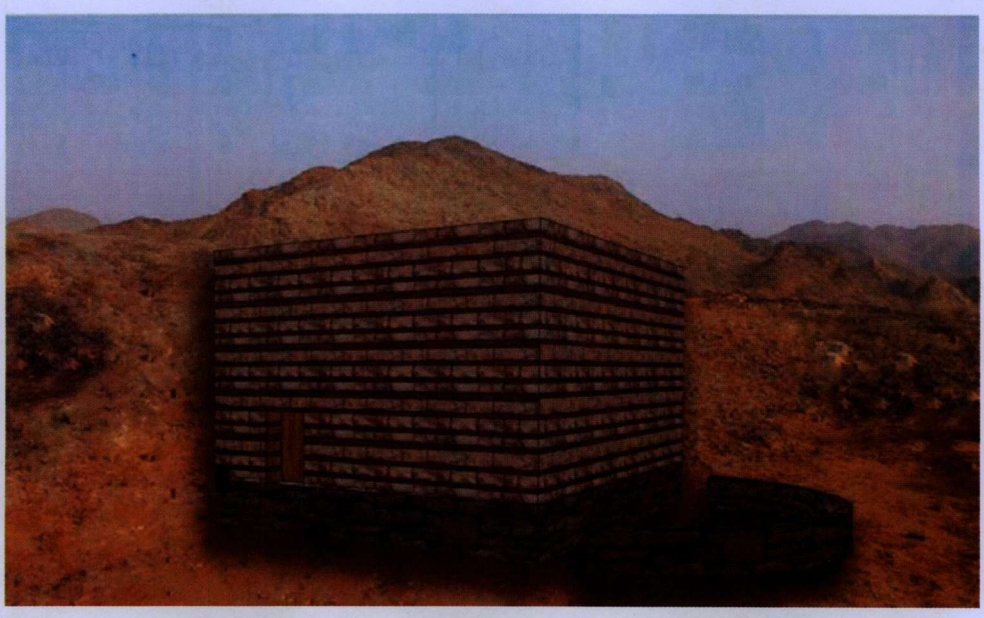

اللوحة ٢- أ: منظور للكعبة عمارة قريش

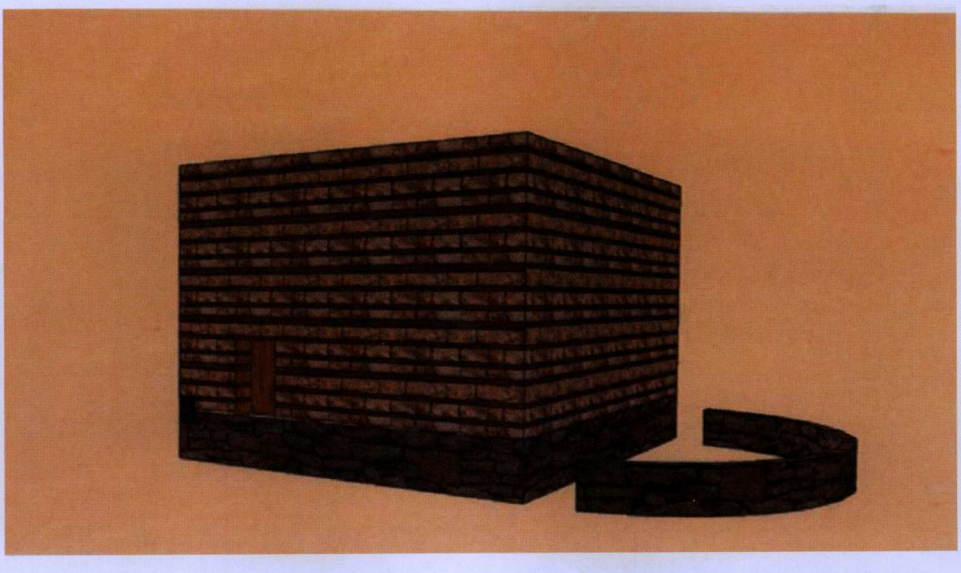

اللوحة ٢ - ب: منظور للكعبة عمارة قريش

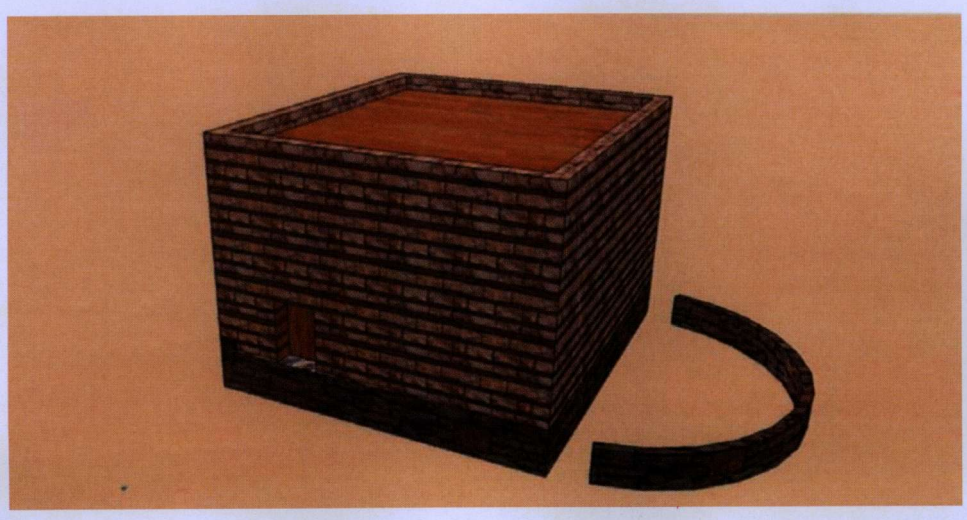

اللوحة ٢ - ج: منظور للكعبة عمارة قريش